وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الخامسة عشرة

دروس من الهجرة

أيها الإخوة المسلمون عباد الله، إننا كبشر فينا الخير وفينا الشر، فينا الإقدام وفينا الركود والخمول، نحتاج إلى من يصحح خطانا ومن يكون قدوة لنا؛ حتى نسير سيره وننتهج نهجه، فأرسل الله تعالى الرسل؛ ليبينوا للعباد معاني شرع رب العباد، وأرسل إلينا رسول الله ﷺ الذي نستنشق سيرته العطرة، ونتعظ ونصحح بها خطانا.

أحبتي في الله، لم يزل الله يمن علينا بدراسة هذه السيرة العطرة نقطف من ثمارها، لعل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى.

وقد تكلمنا في الخطبة الماضية عن معنى الهجرة، وتعلمنا كيف تكون التضحية والفداء، وكيف يكون التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، فهيا بنا عباد الله نستكمل هذه الثمار.

الصدق مع النفس والإخلاص

إذا أردنا عباد الله أن نقطف ثمرة الصدق مع النفس، والصدق مع الله، والصدق مع رسول الله ﷺ؛ فخير مثال لذلك هو: أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

فها هو رضي الله عنه يضرب أرقى أمثلة الصدق والنصرة من قبل رحلة الهجرة، حيث سَخَّر نفسه رجاء أن يكون مع الرسول ﷺ.

وفي أثناء الهجرة حيث كان له معينا، وخادما، ونصيرا، و لم لا؟! والجندي المخلص الصادق لدعوة الإصلاح يفدي قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة الدعوة، وفي هلاكه خذلانها ووهنها.

فها هو رضي الله عنه وهما في رحلة الهجرة يروي: "**أُخِذَ عَلَيْنَا بِالرَّصَدِ، فَخَرَجْنَا لَيْلًا فَأَحْثَثْنَا لَيْلَتَنَا**

وَيَوْمَنَا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، ثُمَّ رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ فَأَتَيْنَاهَا وَلَهَا شَيْءٌ مِنْ ظِلٍّ، قَالَ: فَفَرَشْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرْوَةً مَعِي، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ قَدْ أَقْبَلَ فِي غُنَيْمَةٍ يُرِيدُ مِنَ الصَّخْرَةِ مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا، فَسَأَلْتُهُ لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ، فَقَالَ: أَنَا لِفُلَانٍ، فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ لَهُ: هَلْ أَنْتَ حَالِبٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: انْفُضْ الضَّرْعَ، قَالَ: فَحَلَبَ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ، وَمَعِي إِدَاوَةٌ مِنْ مَاءٍ عَلَيْهَا خِرْقَةٌ قَدْ رَوَّأْتُهَا[1] لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَشَرِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ ارْتَحَلْنَا وَالطَّلَبُ فِي إِثْرِنَا"[2].

انظروا إلى أعلى درجات الصدق، فكأن هذا الصدق حَوَّل المعاني المعنوية إلى معان مادية، فكأنه شعر برسول الله ﷺ أنه ارتوى بعد عطش، وشبع بعد جوع، مع هذا الحب العميق لرسول الله ﷺ والخوف الشديد عليه فقد صدق معه أبو بكر الصديق ﷺ، وأنفق ماله في سبيل الله، وأنفق عمره، وأنفق جهده صدقًا ويقينًا، كذلك كان يسير خلفه أحيانًا، وأحيانًا أمامه، يقول: **"يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَذْكُرُ الطَّلَبَ فَأَمْشِي خَلْفَكَ، ثُمَّ أَذْكُرُ الرَّصْدَ، فَأَمْشِي بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْ كَانَ شَيْءٌ أَحْبَبْتَ أَنْ يَكُونَ بِكَ دُونِي؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا كَانَتْ لِتَكُونَ مِنْ مُلِمَّةٍ إِلا أَنْ تَكُونَ بِي دُونَكَ"**[3].

وكما أنه كان صادقًا مع الله ورسوله ﷺ كان صادقا مع الناس، فالصدق مع الله جعله صادقا مع رسول الله ﷺ، وصدقه مع الله ومع رسول الله ﷺ جعله صادقا مع الناس.

فها هو ﷺ –وهو معروف بين العرب– وهو في طريقه مع الرسول ﷺ للهجرة، والكفار

---

[1] قال ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (١/٩٠): "روأ: روَّأَ فِي الأَمرِ تَرْوِئَةً وتَرْوِيئًا: نَظَرَ فِيهِ وتَعَقَّبه".

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩١٧)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٠٠٩).

[3] أخرجه الحاكم رحمه الله في المستدرك (٤٢٦٨)، وقال الذهبي رحمه الله في تلخيصه: صحيح مرسل.

يريدونهما بمائة من الإبل، إذ سئل أبو بكر ﷺ: من الذي معك؟ فقال: **"هَـذَا الرَّجُـلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ"**[1]، يريد أبو بكر ﷺ الهداية في الدين، ويحسبه السائل دليلًا للطريق، فهو ﷺ صادق في كل وقت، ولِمَ لا يكون أبو بكر ﷺ هكذا وقد نهل من معين الصدق في رفقة الصادق المصدوق ﷺ؟! هذه الصفة التي نعت بها المشركون النبي ﷺ لفظًا وفعلًا لما تركوا له الأمانات وهم يحاربونه ﷺ، وهو ﷺ لم يمنعه عنادهم، وكفرهم، وفراره منهم مهاجرًا أن يُنَصِّبَ عليا ليَرُدَّ أماناتهم، فقد تجلت صور الصدق في رسول الله ﷺ، وكما تكلمنا في الخطبة الماضية وكيف أخذ ﷺ بالأسباب ليبين للناس هذا الأمر، وإلا فهو قد توطنت نفسه وتوطن قلبه يقينا وإيمانا بالله تعالى، فقد هاجر مع المهاجرين، وصبر مع الصابرين، واجتهد مع المجتهدين.

القيادة وعظم المسؤولية:

بل لم يهاجر النبي ﷺ إلا بعد أن اطمأن أن المسلمين قد هاجروا فهاجر أخيرا، هذه هي القيادة، ليست نوعًا من الترف، والراحة، والدعة، ولم تكن يوما نوعا من التعالي والكبر، بل القيادة كانت كما علمنا ﷺ.

وقد تجلى أمر آخر في الهجرة يدل على هذا المعنى، فقد يخطر في بال مسلم أن يقارن بين هجرة عمر بن الخطاب ﷺ وهجرة النبي ﷺ، ويتساءل لماذا هاجر الرسول ﷺ مستخفيًا محتاطًا؟! فالكل هاجر سرًا، أما عمر ﷺ فقد هاجر جهرًا، بل وقف في المسجد الحرام ونادى بصوت مرتفع (يستفز المشركين) قائلا: **"مَنْ أَرَادَ أَنْ تَثْكُلَهُ أُمُّهُ، وَيُوتِمَ وَلَـدَهُ، وَيُرْمِلَ زَوْجَتَهُ؛ فَلْيَلْقَنِي وَرَاءَ هَذَا الْوَادِي"**[2] ومعه سيفه وأسهمه، ثم انطلق فلم يعترضه

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٩١١).

[2] قال الشيخ الألباني رحمه الله في رده على البوطي في كتاب دفاع عن الحديث النبوي والسيرة (٤٢/١): "جزمه بأن عمر ﷺ هاجر علانية اعتمادًا منه على رواية علي المذكورة، وجزمه بأن عليًا رواها ليس صوابًا؛ لأن السند بها لا يصح وصاحب أسد الغابة لم يجزم أولًا بنسبتها إليه ﷺ، وهو ثانيًا قد ساق إسناده بذلك إليه لتبرأ ذمته، ولينظر فيه من كان من أهل العلم، وقد وجدت مداره على الزبير بن محمد بن خالد العثماني: حدثنا عبد الله بن القاسم الأملي (كذا الأصل ولعله الأيلي) عن أبيه، بإسناده إلى علي، وهؤلاء الثلاثة في عداد المجهولين، فإن أحدًا من أهل الجرح والتعديل لم يذكرهم مطلقًا".

أحد، بل ذهب معه عشرون من ضعفاء المسلمين يحتمون به، ولهذا يقول ابن مسعود ﷺ: **"إِنَّ إِسْلَامَ عُمَرَ كَانَ فَتْحًا، وَإِنَّ هِجْرَتَهُ كَانَتْ نَصْرًا، وَإِنَّ إِمَارَتَهُ كَانَتْ رَحْمَةً"**[1].

أيكون عمر أشد جرأة من النبي ﷺ ؟! الجواب: أن عمر بن الخطاب ﷺ وأي مسلم آخر يعد تصرفه في هذا الوقت تصرفا شخصيًا لا حجة تشريعية فيه، فله أن يتخير من الطرق والوسائل ما يحلو له، وما يتفق مع جرأته وإيمانه بالله تعالى، أما الرسول ﷺ فهو مشرع؛ فلو فعل مثل فعل عمر بن الخطاب ﷺ؛ لحسب الناس أن هذا هو الواجب، وأنه لا يجوز أخذ الحيطة، والحذر، والتخفي عند الخوف، فلا بد من استعمال الأسباب المادية التي أرادت حكمة الله عز وجل أن تكون أسبابًا.

كذلك نجد النبي ﷺ في أحلك الظروف يُعَلِّم المسلمين كيف يكون القائد متعلقًا بالله ﷻ، وله هدف محدد مهما حدث حوله فهو متجه إلى هدفه، ففي الهجرة حدث موقفًا يدل على ذلك، وهو لما أدركه بريدة وسبعون معه -كما يبين أهل السير- يريدون أن يأخذوا المكافأة التي أعدتها قريش لمن يحصل عليهما في هذا الموقف العصيب، وجدنا القائد ﷺ وقد تعلق قلبه بالله، وله هدف واحد وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فلما قابلهم؛ دعاهم إلى الإسلام والإيمان فآمنوا جميعا في وقت واحد، فلو اتخذنا رسولنا قدوة؛ لسوف نفعل فعله، وننتهج نهجه، ونسير على خطاه، فالقدوة الحسنة عباد الله من الأب تنطبع على ابنه، والقدوة الحسنة من الأم تنطبع على ابنتها، وقديمًا قالوا:

إذا كان ربُّ البيت بالدُّفِّ ضاربا ... فشِيْمَة أهلِ البيت كُلِّهِمُ الرَّقْصُ

فالقدوة الحسنة من الأشياء العظيمة المفتقدة في هذه الأيام، فأنت أيها الأب المدخن، هل أنت مقتنع بما تعمله؟! تعصي الله وتدمر نفسك، ثم بعد ذلك تدمر أولادك، فمهما قلت لابنك عن أضرار التدخين؛ فما فعلت شيئًا، فقد طبعت في قلبه حب هذا البلاء، أو على الأقل عدم كراهيته واعتباره أمرا معتادًا؛ لأنك أنت قدوته شئت أم أبيت؛ وأيضا عليك

[1] أخرجه الطبراني رحمه الله في المعجم الكبير (٨٨٠٦).

أن تكون صادقًا، فإن كذبت؛ كذب أبناؤك، وكذلك أنتِ أيتها الأم قدوة، فأنت تطبعين بالتزامك بدينك وعفافك على قلب ابنتك، فلنحذر عباد الله "**أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**"[1]، فعلينا أن نتخذ الرسول ﷺ دليلًا وقدوة.

الابتلاءات

ألم تروا عباد الله أن المسلمين في مكة كانوا في ابتلاء وفتنة الإيذاء والتعذيب؟!! ثم أُذن لهم في الهجرة، فأصبحت فتنتهم في ترك أوطانهم وأموالهم، فلما بدؤوا في الهجرة؛ أصبحت فتنتهم في مشقة ومخاطر الطريق وفي المستقبل المنتظر والماضي المسلوب، فلما استقروا في المدينة؛ أصبحوا في ابتلاء، وجهاد، وصبر، فلما ظفروا وأظهرهم الله؛ انتقلوا إلى فتنة المال وسعة الحياة.

وهكذا المسلم، فهو في ابتلاءات وفتن لا يقوى عليها إلا بالصبر، واليقين، والعلم حتى يعرف الخير من الشر، فتنة في البيت مع زوجته، أو امرأة في ابتلاء مع زوجها.

فتنة ابتلاء مع الأولاد، وابتلاء في العمل، حتى أصبح الآن الابتلاء في المواصلات، فعلى المسلم أن يَثْبُتَ ويتقي الله: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا** ﴾[الطلاق: ٢، ٣]

وعليه أن يصبر ويحتسب، يقول الله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[آل عمران: ٢٠٠]، فاصبروا عن المعصية، وصابروا على الطاعة، ورابطوا بتتابع الخير، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**"[2]، والوصب هو المرض.

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٧١٣٨)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٨٢٩).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٦٤١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه بلفظ قريب (٢٥٧٣).

واعلموا عباد الله أن البلاء الذي يبتلى به المسلم إما رفع للدرجات، وإما تكفير للسيئات، وذلك إذا صبر، وكل ذلك عن حكمة من الحكيم.

ولكن لا بد أن نقف وقفة، إن هذه البلاءات التي تتراكم واحدة تلو الأخرى، غلو في الأسعار، انتشار الأمراض والأوبئة، الاستهزاء بثوابت الدين؛ علينا أن نعلم أن هذا من ذنوبنا وتقصيرنا، يقول تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الروم: ٤١]، آية واحدة فيها الداء والدواء، هذا الفساد وهذا البلاء من معاصي الناس بسبب الزنا، والعهر، والفجور، والخمور، والرشاوي، والنفاق، والعمالة، والسبب قد بَيَّنَه الله تعالى في غير ما آية إجمالًا وتفصيلًا، يقول تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٧٩]؛ أي إن لم تتركوا الربا، ويقول تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ ﴾[نوح: ٢٥]، فالله ﷻ لا يظلم أحدًا.

فعلى المسلمين إذا أصابهم البلاء؛ أن يصبروا، ويحتسبوا، ويعلموا أن هذا من عند الله بسبب ذنوبهم، وليصلحوا الخلل بالتوبة، والإنابة، والرجوع إلى شرعه سبحانه.

والسؤال الآن هل فعل المسلمون ذلك؟ لا وألف لا، بل ازدادوا في الطغيان، لما ضرب المفاعل النووي في العراق؛ قال مناحم بيجن القائد اليهودي: أعتقد أنهم سيتكلمون كثيرًا ثم سرعان ما ينسون، وقد صدق وهو كذوب، فها هو التاريخ أكبر شاهد على خزينا وإهمالنا وبُعدنا عن ربنا؛ أخذت فلسطين وسيطر اليهود، وما زلنا في لهونا ولعبنا، يعبثون في المسجد الأقصى، والمسلمون يقيمون حفلات الرقص والمجون، نُهبت أفغانستان، والمسلمون غارقون في الخمر والمخدرات، احتُلت العراق وقتل أبناؤها، والمسلمون يتعاملون في الربا، انتهكت الأعراض في سجن أبي غريب، والرشاوي مستمرة، والنفاق، وسوء الأخلاق، فأرسل إلينا الجبار زلزالا صَدَّع الأرض، فقمنا بتكريم الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، انتشرت السرطانات، والفشل الكلوي، والكبد

الوبائي، خيانة وعمالة، والمسلمات على رمال المصايف عرايا بجوارهن أزواجهم المسلمون، أرسل الله الوباء في أطعمتنا السامة، وما زالت المقاهي مزدحمة بالمدخنين المضيعين لأعمارهم، سَبّوا النبي ﷺ وأرادوا أن يهينوه، فقمنا تصفيقًا بانتصارات كرة القدم.

هذه هي الحقيقة عباد الله التي يعلمها كل واحد منا، ماذا ننتظر حتى نعود إلى الله ﷻ؟! وهذه الابتلاءات واحدة تلو الأخرى، إنها السنن الكونية، الإنذارات والبلاء ثم العقاب، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، ومع ذلك إلى الآن الله يعاملنا بلطفه، ابتلانا فلم نصبر، وأعطانا فلم نشكر، فلا هو بعدم صبرنا أدام البلاء، ولا هو بعدم شكرنا منع العطاء، بل ما زال ينادي: **"مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي؟ فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي؟ فَأَغْفِرَ لَهُ"**[1].

الكفر ملة واحدة

فها هم قد اجتمعوا في دار الندوة ليتخذوا قرارًا حساسًا في أمر هجرة الرسول ﷺ، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠] ، فطرحت اقتراحات؛ منها: أن يحبس حتى يموت، ومنها أن يخرجوه من مكة فلا يدخلها، وتنفض قريش من أمره، ولكنهم استبعدوا هذين الحلين، ورأوا أن يقتلوه، فقال أبو جهل: **"نَأْخُذُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غُلامًا سَبطًا شَابًّا نَهْدًا، ثُمَّ نُعْطِي كُلَّ غُلامٍ مِنْهُمْ سَيْفًا صَارِمًا، ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ يَعْنِي: ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمُوهُ؛ تَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، فَلا أَظُنُّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقْوُونَ عَلَى حَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهُمْ"**[2]، ويا للعجب إنهم يجتمعون عليه

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١١٤٥)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٧٥٨).

[2] أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٨٧/٥)، جوامع الكلم: إسناده حسن، رجاله ثقات عدا ابن إسحاق القرشي، وهو صدوق مدلس.

ليقتلوه وهم يعلمون أنه صادق، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويرونه ساحرا مخادعا، لم يكونوا يجدون ممن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقا، فكانوا لا يضعون حوائجهم وأموالهم التي يخافون عليها إلا عنده، ولكن نجّاه الله منهم، ويا للعجب! مشركو قريش كان عندهم من النخوة والمروءة ما لا نراه في بعض مسلمي اليوم، فلما وقفوا أمام بيت النبي ﷺ ولم يخرج، كان المتوقع أن يقتحموا عليه البيت، فهم يرونه في بردته، وقد أخبرهم أحد المشركين أنه خرج، فقيل: نقتحم البيت عليه، فاعترض معظم المشركين، وقالوا: إنها سُبَة في العرب أن يقال عنا: تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، ولما ذهب أبو جهل الجلف اللعين الشديد الكفر إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه يبحث عن النبي ﷺ وسأل أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، فقالت: **"لَا أَدْرِي وَاللهِ أَيْنَ أَبِي، قَالَتْ: فَرَفَعَ أَبُو جَهْلٍ يَدَهُ وَكَانَ فَاحِشًا خَبِيثًا، فَلَطَمَ خَدِّي لَطْمَةً خَرَّ مِنْهَا قُرْطِي، قَالَتْ: ثُمَّ انْصَرَفُوا"**[1]، وهذا أمر شديد عندهم، ولكنه لم يهتك ستر البيت ويدخل، عندما يتأمل المرء مثل هذه المواقف يوقن بأن فطرة البشر قد مسخت إلى حد كبير، ولكن مع ذلك لم يؤمنوا؛ لأنه الكفر والعناد.

هكذا عباد الله فالكفر ملة واحدة شرقًا أو غربًا، بيضًا أو سودًا في كل عصر وفي كل حين، فإن الكافرين لا يألون جهدًا في إضعاف المسلمين يريدون أن يمحوا الإسلام، ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٦]، فعلى المسلمين أن يفطنوا لهذا الأمر وأن يعدوا له عدته.

النفس البشرية تحتاج إلى البيئة الإيمانية

إن النفس البشرية يريد لها الإسلام أن تعيش في جو من النظام المحكم الذي يسهل لها فهم

[1] أخرجه أبو نعيم رحمه الله في حلية الأولياء (٢/٥٦)، راجع حلية الأولياء.

هداية الإسلام، ويحبب إليها العمل بهذه الهداية في كل ضرب من ضروب الحياة، وتتوفر في هذا النظام حرية الدعوة إلى كل ما ينشده الإسلام، فيتيسر القيام بأعماله جهارًا في جميع أحوال الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، ويكون فيه للحق قوة تقمع كل من يصد عن ذلك فإذا نشأت النفس في مثل هذه البيئة؛ كانت قوة للإسلام تعمل على رفعته، أما إذا نشأت ونمت تحت جناح نظام يخالف الإسلام، ويخذل دعوته، ولا يربي الأمة على آدابه؛ فإنّ قوتها تكون معطلة عن تأييد الإسلام، ولو أننا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة، وعلمنا أن كتاب الله الذي نتلوه قد أنحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في مكة يصلون ويصومون، ولكن ارتضوا البقاء تحت جناح أنظمة تخالف الإسلام، فلا قوة لهم على تغيير تلك الأنظمة؛ لعلمنا أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة والصوم، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا أنظمته وآدابه في بيوتهم، وأسواقهم، وأنديتهم، حتى إذا عمّ هذا الإصلاح أرجاء واسعة؛ تلاشت تحت آشعته ظلمات الباطل، ولهذا يقول ﷺ: **"الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَاتِ"**[1]، ونظرًا لهذا عباد الله؛ فإن أهمية الهجرة في إنشائها بيئة إسلامية، فكانت لهذا أهم حدث في التاريخ.

تاريخ الدعوة

ولأهمية ذلك كان التاريخ بالهجرة، ولم يكن بغيرها من الأحداث كميلاده ﷺ وغزوة بدر.

فكانت هذه البيئة الفاضلة التي أنشأها المسلمون أعلى وأفضل من هذه المدينة الفاضلة التي تخيلها الفلاسفة وسطروها في الكتب، فقد أثبت الصحابة والمهاجرون الأولون رضي الله عنهم أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تتباهى بها الملائكة سناء ونضارة.

[1] أخرجه ابن حبان رحمه الله في صحيحه (١٩٦)، وقال الألباني رحمه الله في الإيمان لابن تيمية: إسناده صحيح (٣).

علاقة الإيمان بالسلطان المادي:

وأثبت الصحابة ﷺ أيضًا سنة الله تعالى في الكون، فمهما كانت الأمة غنية في خلقها السليم، متمسكة بدينها الصحيح؛ فإن سلطانها المادي المتمثل في الوطن، والمال، والعزة يغدو أكثر تماسكًا، وأرسخ بقاء، وأمنع جانبا، ومهما كانت فقيرة في أخلاقها، مضطربة تائهة في عقيدتها؛ فإن سلطانها المادي المتمثل فيما ذكرنا يغدو أقرب إلى الاضمحلال والزوال، والتاريخ أعظم شاهد.

التضحية من سبل الحفاظ على المضحى به:

ولذلك شرع الله ﷻ مبدأ التضحية بالمال والأرض في سبيل العقيدة، وحسبنا دليلا على هذه الحقيقة هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، ولقد كانت بحسب الظاهر تركا ورب مظاهر الحفاظ على الشيء يبدو في صورة الترك له والإعراض عنه؛ لأنه لا قيمة لوطن بدون بيئة طيبة، وأمر البيئة عباد الله أمر هام، فبيئتك بيتك، عملك، ما جعل الله لك التحكم فيه، أو تستطيع أن تغير فيه، فالله سائلك، فلا تُدخل في بيئتك أي شيء فيه معصية لله، أو أشخاصا غير مرغوب فيهم، حدد معالم بيئتك، ولتكن هذه البيئة الله هو الحكم فيها، هو الآمر الناهي فيها، والرسول ﷺ فيها هو القدوة، فـ**"كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"**، فلو أدخلت في بيتك هذا المغني المايع أو هذه الراقصة أو الممثلة الساقطة؛ فقد حكمت على بيئتك بالفشل بسبب هذا البث الإعلامي، ويقول ﷺ: **"الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ"**[1].

عباد الله، هذا هو قرآنكم، وهذا هو رسولكم ﷺ، وهذه هي سيرته ﷺ، فقد اكتمل الدين ولله الحمد، فاختر لنفسك عافاك الله، فسوف تختار ما تحاسب عليه.

اللهم صل وسلم وزد وبارك على محمد ﷺ

[1] أخرجه أبو داود في سننه (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود رحمه الله (٤٨٣٣).